متصوّف يصف البنت العذراء والطفلة الهيفاء

المرأة في حياة سلطان العارفين إبن عربي

ناصر محسن المعاضيدي
بغداد

هو محيي الدين محمد بن علي بن عربي الحاتمي الطائي الاندلسي احد أشهر المتصوفين لقبه اتباعه وغيرهم من الصوفية (بالشيخ الاكبر) ولذا ينسب اليه الطريقة الاكبرية الصوفية. ولد في مربية في الاندلس عام 560 ،وتزوج بفتاة تعتبر مثالا في الكمال الروحي والجمال الظاهري وحسن الخلق،فساهمت معه في تصفية حياته الروحية،بل كانت احد دوافعه الى الامعان فيها وفي هذه الاثناء كان يتردد على احدى المدارس في الاندلس التي تعلم سراً مذهب الامبيذ وقلية المحدثة المفعمة بالرموز والتأويلات والموروثة عن الفيثاغورية والاورفيوسية والفطرية الهندية،وكان اشهر اساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن العريف. محيي الدين هو أعلم الرجال التصوف،ولهذا هو أرحبهم أفقاً،وأوسطهم طريقة،ومن هنا جاءت آراؤه معتدلة محكمة،أعطت مال لله لله،ولم تنس الحياة،فلم يعش داخل الكهوف والمغارات،ولم يعتزل الناس والدنيا،بل كان جليس الملوك القائم ببعض أعباء حكمهم،المساهم في أحداث الوجود،الطواف بالأرض،هادياً ومرشداً ومعلماً. ومن ثم جاءت نظرته الى المرأة واكباره،بل وحبه لها،الحب الحلال الشريف،الحب الديني المأثور في الكتاب والسنة. وحب النساء عنده ميراث نبوي،وحب الهي ،فقد قال الرسول – صلوات الله عليه: "وحبب الي من دنياكم ثلاث: الطيب ،والنساء ،وقرة عيني في الصلاة " فلم ينسب حبه فيهن الا الى الله – سبحانه،ولهذا قال: " حبب". وكمال العارفين في هذه المحبة ،فلا يجوز الاعراض عنهن زاهداً ،لأنه لا يحبب الى الرسول – صلوات الله عليه – ما يبعده من ربه بل حبب اليه ما يقربه منه،ولهذا يؤجر الرجال على صلاته بامرأته. فحبهن فريضه واقتداء بالرسول،وحنين الرجل الى المرأة فطرة في النفس،فهو حنين الكل الى الجزء،وما جاء الاسلام ليحارب الفطرة او يقف في وجهها،فالدين هو الفطرة التي فطر الله – سبحانه – الناس عليها. ولا يستقيم المزاج اذا تعار ضمع الفطرة،وفي صلاح المزاج صلاح الدين،وفي صلاح الدين السعادة،بشرط خضوع الانسان للميزان الالهي الذي أتى به الشارع صلوات الله عليه.

نععومة امرأة

وفي حياة محيي الدين ثلاث نساء،أولاهن: عابدة زاهدة، عرفها بإشبيلية في مطلع شبابه،فكانت له أماً روحية،يحدثنا عنها في الفتوحات فيقول: وخدمت أنا بنفسي امرأة من المخبآت العارفات بإشبيلية،يقال لها: فاطمة بنت المثنى القرطبي،خدمتها سنين،وهي تزيد وقت خدمتي اياها على خمس وتسعين سنة،وكنت أستحي أن أنظر الى وجهها في هذا السن من حمرة خديها،وحسن نعمتها وجمالها،تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعومتها ولطافتها. وكان لها حال مع الله،وكانت تؤثرني على كل من يخدمها من أمثالي. وتقول: ما رأيت مثل فلان،اذا دخل علي دخل بكله لا يترك منه خارجاً عني شيئاً،واذا خرج من عندي خرج بكله لا يترك عندي منه شيئاً.

وسمعتها تقول: عجبت لمن يقول: انه يحب الله ولا يفرح به،وهو مشهود،عينه اليه ناظرة في كل عين،ولا يغيب عنه طرفة عين،فهؤلاء البكاءون كيف يدعون محبته ويبكون،أما يستحون؟

اذا كان قربه مضاعفاً من قرب المتقربين اليه،والمحب أعظم الناس قربة اليه فهو مشهوده،فعلى من يبكي؟ ان هذه لأعجوبة. ثم تقول لي: يا ولدي،ما تقول فيما أقول؟ فأقول لها: يا أمي،القول قولك. قالت: اني والله لمتعجبة،لقد أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب تخدمني،فوالله ما شغلتني عنه. فمن ذلك اليوم عرفت مقام هذه المرأة لما قالت: ان فاتحة الكتاب تخدمها،فبينما نحن قعود اذ دخلت امرأة،فقالت لي: يا أخي،ان زوجي في شريش وأريده،فماذا ترى؟ قلت لها: وتريدين أن يصل؟

قالت: نعم. فرددت وجهي الى العجوز،وقلت لها: يا أم،ألا تسمعين ما تقول هذه المرأة؟

قالت: وما تريد يا ولدي؟ قلت: قضاء حاجتها في هذا الوقت. فقالت: السمع والطاعة،اني أبعث اليه بفاتحة الكتاب وأوصيها أن تجيء به.

وأنشأت فاتحة الكتاب تقرأها وقرأت معها، فعلمت مقامها عند قراءتها الفاتحة،وذلك أنها تنشيها بقراءتها صورة مجسدة هوائية،هي سر من أسرار عطايا القرآن،فلما أنشأتها صورة سمعتها تقول لها: يا فاتحة الكتاب،أطلب كذا.

فلم يلبث حتى وصل الى أهله. وكانت تضرب بالدف وتفرح،فكنت أقول لها في لك،فتقول لي: والله،اني أفرح،حيث اعتنى بي وجعلني من أوليائه واصطفاني لنفسه،من أنا حتى يختارني على أبناء جنسي،وعزة ربي،انه يغار علي غيرة ما أصعبها!

ما التفت الى شيء باعتمادي عليه عن عالة الا أصابني ببلاء في ذلك الذي التفت اليه،ثم أرتني عجائب من ذلك،فما زلت أخدمها بنفسي،وبنيت لها بيتاً من قصب بيدي على قدر قامتها،فما زالت فيه حتى درجت،وكانت تقول لي: أنا أمك الالهية،ونور أمك الترابية،واذا جاءت والدتي الى زيارتها تقول لها: يا نور هذا ولدي فبريه ولا تعقيه والثانية تعرف بها في مكة،فحادثته في المحبة الالهية وحاورته،واتصل بينهما حبل المودة الخالصة،فرأى عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف،يصورها كنت أطوف ذات ليلة بالبيت،فطاب ((: لنا في شرح ترجمان الأشواق تصويراً رائعاً وقتي،وهزني حال كنت أعرفه،فخرجت من البلاط من أجل الناس،وطفت على الرمل،فحضرتني أبيات،فأنشدتها أسمع بها نفسي ومن يليني،لو كان هناك أحد.

فلم أشعر الا بضربة بين كتفي ألين من الخز،فالتفت فاذا بجارية من بنات الروم،لم أر أحسن وجها ولا أعذب منطقاً ولا أرق حاشية،ولا أطيب معنى ولا أدق ارادة ولا أظرف محاورة منها،قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالاً ومعرفة،فقالت: يا سيدي كيف قلت؟

قلت:فقالت: عجباً منك وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا؟

أليس كل مملوك معروف،وهل يصح الملك الا بعد المعرفة،وتمني الشعور يؤذن بعدمها،والطريق لسان صدق،فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا؟

قل يا سيدي،فماذا قلت؟ فقلت:

فقالت: يا سيدي،الشعب الذي بين الشغاف والفؤاد،هو المانع له من

محيي الدين محمد

المعرفة،فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول اليه الا بعد المعرفة،والطريق لسان صدق،فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا يا سيدي؟ فماذا قلت بعده؟

تخدير الحواس

فقلت: فصاحت وقالت: يا عجباً! كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها،والهوى شأنه التعميم،يخدر الحواس،ويذهب العقول ويدهشا لخواطر،ويذهب بصاحبه في الذاهبين،فأين الحيرة؟ وما ها هنا باق فيحار،والطريق لسان صدق،والتجوز من مثلك غير لائق.

فقلت: يا بنت الخالة،ما اسمك؟ فقالت: قرة العين. فقلت: لي. ثم سلمت وانصرفت،ثم عرفتها بعد ذلك وعاشرتها،فرأيت عندها من لطائف المعارف ما لا يصف واصف والثالثة: التقى بها في مكة أيضاً،طفلة عذراء هيفاء،من أهل العلم،وله فيها أشعار وتكنيهات رائقة رائعة،يذكر لنا في شرح ترجمان الأشواق،كيف اتصل حبله برجل فاضل من أهل العلم والكمال،ثم يقول متحدثاً بقلمه الساحر كان لهذا الشيخ –رضي الله عنه –بنت عذراء،طفلة هيفاء،تقيد النظر،وتزين المحاضر،وتحير المناظر،تسمى بالنظام،وتلقب بعين الشمس والبهاء،من العابدات العالمات السابحات الزاهدات،شيخة الحرمين،وزينة البلد الأمين الأعظم بلامين،ساحرة الطرف،عراقية الظرف،ان أسهبت أتعبت،وان أوجزت أعجزت،وان أفصحت أوضحت،ان نطقت خرس قس بن ساعدة،وان كرمت خنس معن بن زائدة،وان وفت قصر السموأل خطاه،وأغري بظهر الغرور فامتطاه،ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض،السيئة الأغراض لأخذت في شرح ما أودع الله في خلقها من الحسن،وفي خلقها الذي هو روضة المزن،شمس بين العلماء،بستان بين الأدباء،حقة مختومة،واسطة عقد منظومة،يتيمة دهرها،كريمة عصرها،سابغة الكرم،عالية الهمم سيدة الديها،شريفة باديها،مسكنها جياد،وبيتها من العين السواد،ومن الصدر الفؤاد،أشرقت بها تهامة،وفتح الروض لمجاورتها أكمامه،فنمت أعراف المعارف، بما تحمله من الرقائق واللطائف،علمها عملها،عليها مسحة ملك،وهمة ملك،فراعينا في صحبتها كريم ذاتها،مع ما انضاف الى ذلك من صحبة العمة والوالد،فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد،بلسان النسيب الرائق،وعبارات الغزل اللائق،ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس،ويثير الأنس من كريم ودها وقديم عهدها،ولطافة معناها وطهارة مغناها،اذ هي السؤل والمأمول،والعذراء البتول،فأعربت عن نفس تواقة،ونبهت على ما عندنا من العلاقة،اهتماماً بالأمر القديم،وايثاراً لمجلسها الكريم،فكل اسم أذكره في هذا الجزء،فعنها أكني،وكل دار أندبها فدارها أعني تلك هي العذراء الهيفاء التي أوحت الى محيي الدين أشعاره في ديوانه ترجمان الأشواق،وتلك هي العذراء التي أحبها محيي الدين وبنى بها،وكان له منها الولد والأثر.

سالوفة رضا علوان

جميل ان تكون لنا مسارح تخاطب العقل الجمعي بلغة بسيطة .. بحكاية .. بسالوفة.. او حتى بطقطوقة .. فمهمة المسرح تكمن في تفجير الطاقات الفنية .. والمسرح الجاد لا يتعاظم دائما بفخامة المكان ، ولا ببذاخة اللغة ولا حتى بالعروض الكبيرة ، والمؤثرات الصوتية المدهشة .. انما بفن اختزال الفكرة و توصيلها . . و بعث الرسالة وتوضيحها.. و بكلفة مادية باقل مما يتصوره الشاخص امام حدث مسرحي من نوع (سالوفة مسرحية).

على قاعة صغيرة في (مقهى رضا علوان) ، لم يفكر احد منا ان تتسع هذه القاعة يوما لعروض مسرحية تعتمد على فن (المزاوجة) فالعرض المسرحي الذي أمامي .. هو حكاية من حكايات المتداول الشعبي .. الارادة والتصميم .. الصدق والثبات على مانؤمن به .. وجميع القيم المعرفية التي تتشكل حولها . .

كما ان هذا العمل الفريد ، تم إقحامه في حلقات فنية جميلة / من اللون ، والضوء ، والحركة .

ان (سالوفة مسرحية) هي نتاج عمل مهم لممثلين ومبدعين رائعين .. يتراوح بين اداء متماسك ، واخر يصل الى مرحلة القبول .. لكن وجود فنانين كبار وراء اخراج هذا العمل المسرحي مثل (الفنان الكبير سامي قفطان ، و دحسين علي هارف ، و د زينب الدليمي ، وعزيز كريم) .. ومجموعة مختارة من الممثلين الشباب الذين أمتعونا بفنهم الجميل .. يعوض عن بعض الهنات التي حصلت هنا وهناك .

باختصار : ان رسالة وهدف هذه المسرحية .. هي العودة الى القيم الانسانية والمعرفية التي تحتاجها المجتمعات المتجذرة بعمقها التاريخي والحضاري .. في زمن وجدت نفسها وقد تراجعت كثيرا عن أصالتها وقيمها الحضارية .

على مدى اكثر من ساعة .. كنّا امام تنقلات فنية مشوقة .. ومزاوجة لم تكن سهلة لا على مستوى الترابط في الاداء ولا على مستوى اخضاع المؤثرات الفنية وضرورة استقرائها على نحو يرضي المتلقي بتسجيلها السينمائي .. وبمواكبة فرقتها التراثية .. وكان على الممثل ان يظل يقظا في تواصله .. فهو يغادر خشبة المسرح ليظهر فجأة على شاشة السينما ..ثم يخرج من الشاشة ليطل علينا من جديد فوق خشبة المسرح .. وكان على الفنان سامي قفطان (القسطخون) ان يستمر بحديثه الشيق متنقلا بين المسرح والسينما وفعاليات الفرقة الموسيقية التي أمتعتنا بأجمل الاغاني التراثية .

لقد كنّا امام تصورات جديدة بامكانية دمج الوسائل الاتصالية بفروعها المدهشة شرط ان لا تتجاوز انسانية الانسان وهذا ما حذر عنه أنشتاين منذ اكثر من مئة عام . .

وكأن عرض (سالوفة مسرحية) جاء ليعيد للإنسان مكانته الطبيعية قبل ان تلتهمه آفة تكنولوجيا الاعلام الجديد .. ومنصات التواصل الاجتماعي .. وكل هذا العالم الافتراضي المزحوم بالصور والعنوانات الوهمية . اننا اليوم امام عالم صارت الآلة تتحكم بمستقبلنا ومشاعرنا .. وصار فيه الذكاء الاصطناعي يفكر نيابة عنا ..

وهذا هو العقل الانساني ماض الى استراحة طويلة .. فهل تستطيع (السوالف الشعبية) الاصيلة ان تعيدنا الى حاضرة القيم الاخلاقية .. دون ان نستغني عن تكنولوجيا الاتصال ..؟

كاظم المقدادي
اسطنبول

سقطت ورقة التوت

تعبير يقال عند انكشاف ما هو مستور من أمر فاضح ، ويقال في أصل العبارة أن آدم عليه السلام وحواء سترا نفسيهما عندما بدت سوأتهما بورقة من شجر التوت أو هكذا رسخ عند البشر هذا الظن .

هل زيارة بومبيو وزير الخارجية الامريكي اسقطت ورقة التوت عن المعسكر السياسي العراقي المنقسم ، وهل تصريحات وزير الخارجية العراقي بتعميم مشهد الزيارة وتقليل اهميتها من خلال كلام عائم (اننا ناقشنا العلاقات الثنائية ما بين البلدين والملفات المهمة ومحاربة الارهاب بالعالم) ماشاء الله وزير خارجيتنا يناقش مجابهة الارهاب بالعالم !!

طبعاً البيان الدبلوماسي ممكن ان يُصاغ بهذه الطريقة لأي زيارة او لقاء وممكن ان يتضمن هذا الكلام ، لكن زيارة بومبيو اهميتها نابعة من عنصرين اساسيين اولاً : توقيت الزيارة الغير معلن والمفاجيء ، وثانياً : الاربع ساعات التي كانت كافية لوزير الخارجية الامريكي بتفريغ ما بجعبته من كلام او رسائل ، او تهيئة لاتفاقات تقع ضمن اطار التصعيد الامريكي الايراني والعمل على تحجيم دور ايران في العراق !!

كل التصريحات بعد الزيارة لم تحمل ولا معلومة حقيقية لفحوى الزيارة ، الجميع تحدث بدبلوماسية عالية وكأنهم يخفون خلف الدبلوماسية اسرار مخيفة ، امريكا وايران محور صراع مهم على ارض العراق ، سواءً أكان الصراع اقتصادياً من خلال الحصار المفروض على ايران ومدى ضرره على المنطقة ، او مواجهه سياسية من خلال الوجود الذي تمتلكهُ ايران وامريكا على ارض العراق وتأثيرهما داخل الساحة العراقية ، او صراع مجابهة مباشرة ومعركة حقيقية وامريكا لاتمتلك حدوداً جغرافية مع ايران لذا تطمح لاستخدام ارض العراق للمواجهة ، بكل الحالات العراق خاسر ، هل استطاع الاخ عبد المهدي والدكتور برهم من امتصاص الغضب الامريكي وابعاد شرور صراعاتهم عنا ، هل خيار اختصار اللقاءات بشخصين فقط لإيصال رسائل او التعبير عن الامتعاض من اشخاص السلطة الاخرين ، طلاسم الزيارة مزعجة وتوقيتها جاءت ضمن مهرجان القلق العراقي حيث دخلت العقوبات الامريكية على ايران حيز التنفيذ ومطلوب من العراق موقف حازم مع او ضد ، هل الزيارة تسببت في كشف المستور ، بما معناه هل الزيارة كانت سبباً لكشف من يسير مع المشروع الامريكي ومن يحاول ان يعطي صورة الاعتدال في زمن التمحور ؟

الزيارة اسقطت ورقة التوت واظهرت ضعف التسيق المشترك ما بين امريكا والعراق ، وعززت الانقسام السياسي في الموقف من العقوبات تجاه ايران ، وجعلت مواقع التواصل الاجتماعي وكروبات النخب تشتعل بالتحليلات التي اضفت شيئاً من التعقيد وضياع حقيقة الزيارة وهل حققت الزيارة اهدافها المرجوة ، جميعاً كنا ننتظر بيانات حكومية رصينة توضح للعالم اهداف الزيارة وما تمخضت عنها المباحثات ، تفاجئنا ببيانات وتغريدات دبلماسية اقرب لطمس معالم الزيارة واخفاء اثارها .

بومبيو لم يقطع المحيطات والاف الكيلومترات لكي يمنحنا تمديد الاستثناء بالتعامل مع ايران اقتصادياً رغم العقوبات ، لكنه جاء برسائل مفادها انتم معنا ام ضدنا واعتقد اخذ الاجوبة سلباً ام ايجاباً الله واعلم .

عموماً امريكا تعول على العراق كثيراً في المواجهه مع ايران وإيران تعول على العراق كثيراً في مواجهه امريكا . والعراق غير قادر على صياغة موقف موحد يتناسب وحجم الخطر القادم ويتناغم مع الحفاظ على مصالح العراق وشعبه تحت عنوان (العراق وشعبه اولا) ، في ظل هذا الارباك السياسي والتشتت وتعدد المواقف وفقدان القرار المركزي الوطني المحدد العراق سيصبح طرفاً بالصراع ان رضينا ام ابينا ، وان تجنب ايران وامريكا الصراع ايضاً ستتضرر علاقاتنا الخارجية بسبب عدم التمكن من صياغة الموقف الوطني وتَبنّيه لتجنب التحديات المستقبلية .

العراق يعيش حالة من القلق والارباك السياسي لم يمر به سابقاً وحجم التحدي القادم قد يفاجئنا بنتائج قد لايحمد عقباها ، ان لم نتمكن من اتخاذ المواقف والقرارات الصعبة وصياغتها بما يتناسب وتحديات المرحلة لكي نستطيع حماية العراق وشعبه .

عموماً زيارة بومبيو بهذا التوقيت مؤشر خطير في التوصل لحلول سلمية بين امريكا وايران .

كامل كريم الدليمي
بغداد

تقارير

داء الغوص .. القصة تحولت إلى فيلم سينمائي

غواص ينجو من الموت بأعجوبة بعد سقوطه في قاع المحيط

موت: طاقم العمل يشاهد ليمونز وهو يصارع الموت على عمق 100 متر عبر الصور التي كانت ترسلها مركبة يمكن التحكم بها عن بعد

لندن - ريتشارد غراي

ساد الخوف والقلق بين أفراد طاقم السفينة عندما انقطع الحبل السميك الذي يربط الغواص كريس ليمونز بالسفينة، وكان هذا الحبل يتضمن مجموعة خراطيم وأسلاك تمدّ بدلة الغطس بالحرارة والهواء والطاقة الكهربائية اللازمة للاتصال بطاقم السفينة، على عمق 100 متر تحت سطح الماء.

ودون مقدمات، عَلق ليمونز في الهيكل المعدني الذي كان يحاول إصلاحه، ثم سقط على ظهره حتى استقر في قاع المحيط. وانقطع رجاؤه في العثور على طريق للعودة إلى السفينة.

والأخطر من ذلك أن مخزون الهواء الاحتياطي لم يكن يكفيه إلا لست أو سبع دقائق. وعلى مدى الثلاثين دقيقة اللاحقة، خاض ليمونز تجربة نادرا ما ينجو منها أحد، وهي البقاء من دون هواء.

ويقول ليمونز: "لا أعتقد أنني كنت أعي شيئا مما يحدث حولي، ارتطم جسدي بقاع البحر وكنت محاطا بظلام حالك. كنت أعلم أن مخزون الغاز الذي كنت أحمله على ظهري كان ضئيلا، لكن فرصي في الحصول عليه كادت أن تكون معدومة."

اصلاح انابيب

كان ليمونز عضوا في فريق الغوص المكلف بإصلاح أنابيب النفط بحقل هانتينغتون النفطي على بُعد 127ميلا من أبردين على الساحل الشرقي لأسكتلندا. وتتطلب ممارسة الغوص على هذه الأعماق قضاء شهر كامل في غرف خاصة على متن سفينة الغوص يكون الضغط داخلها أعلى من الضغط الجوي، لتهيئة الغواصين لتحمل الضغوط التي سيتعرضون لها تحت المياه.

ويجب تخفيف الضغط تدريجيا على مدى ستة أيام قبل الخروج من الغرفة. وهذه الخطوة ضرورية بعد الصعود من أعماق البحار، لأن غاز النيتروجين الذي يتنفسه الغواصون من الهواء المضغوط في أعماق البحار يذوب في مجرى الدم والأنسجة، وعندما يصعدون إلى السطح يتناقص الضغط وقد تتكون فقاعات نيتروجين في الدم. فإذا صعد الغواص سريعا، قد تتضرر الأنسجة والأعصاب وقد يموت الغواص في حال تكونت الفقاعات في الدماغ، وتعرف هذه الحالة باسم "داء الغواص".

وفي صباح 18سبتمبر/أيلول 2012 تسلق ليمونز مع رفيقيه الغواصين ديف يواسا ودانكان أولكوك المقصورة المخصصة لإنزال الغواصين إلى الأعماق، لتنفيذ عمليات الإصلاح والصيانة.

ويقول ليمونز، الذي كان يمارس ما يعرف بـ "الغوص التشبعي" منذ عام ونصف، وشارك في خمس عمليات صيانة في أعماق البحار: "كان البحر هائجا إلى حد ما على السطح، لكن المياه كانت صافية في الأعماق".

وتستخدم سفن الغوص عادة نظاما للملاحة والدفع يدار بالكمبيوتر، يعرف باسم نظام التموضع الديناميكي، للحفاظ على السفينة في مكانها فوق موقع الغوص بعد إنزال الغواصين.

ولم يكد ليمونز ويواسا يشرعان في إصلاح الأنابيب في الأعماق، حتى تعطل فجأة نظام التموضع الديناميكي، وانحرفت السفينة سريعا عن مسارها.

وسمع الغواصان أجراس الإنذار عبر نظام الاتصالات، وتلقيا أوامر بالعودة إلى مقصورة الغوص. لكن ما إن بدأ الاثنان في تتبع الخرطوم الذي يقودهما للسفينة، حتى انجرفت السفينة وعادت فوق الهيكل المعدني الذي كانا يصلحانه، واضطرا لتسلقه.

وعندما اقتربا من قمة الهيكل المعدني، علق الخرطوم الذي كان يربط ليمونز بالسفينة بجزء معدني بارز، وحين كان يحاول تخليصه، جنحت السفينة مرة أخرى، وجذبت الخرطوم، وجرّت ليمونز نحو العوارض المعدنية.

ويقول ليمونز، الذي تحولت قصته إلى فيلم وثائقي بعنوان "النفس الأخير": "أدرك ديف أن هناك مشكلة ما، والتقت عينانا لبرهة، ثم حاول يائسا أن يصل إلي، لكن السفينة جذبته بعيدا، وسرعان ما نفد مخزون الغاز لدي لأن الخرطوم كان مشدودا".

ومع تلاطم الأمواج وجنوح السفينة، زاد الضغط على الخرطوم حتى تمزق. وكرد فعل بديهي، حاول ليمونز استخدام اسطوانة الطوارئ التي يحملها على ظهره، لكن حينها كان الخرطوم قد انفصل تماما عن السفينة وسقط ليمونز في قاع المحيط.

واستجمع ليمونز قواه في الظلام الدامس واستطاع أن يقف مرة أخرى ويتلمس طريقه نحو الهيكل المعدني وتمكن من تسلقه إلى القمة على أمل أن يجد مقصورة الغوص.

ويقول ليمونز: "عندما وصلت إلى قمة الهيكل المعدني، لم أجد أثرا لمقصورة الغوص، وقررت أن أتحلى برباطة الجأش وأحافظ على الغاز المتبقي، الذي لم يكن يكفيني سوى لست أو سبع دقائق. وفقدت الأمل في أن ينقذني أحد".

ولا يتحمل البشر نقص الأكسجين إلا لبضع دقائق، بعدها تتوقف العمليات البيولوجية الضرورية لتنظيم الخلايا، وتضعف الإشارات الكهربائية التي تنشّط الخلايا العصبية تدريجيا ثم تتوقف تماما.ويقول مايك تيبتون، رئيس مختبر البيئات المتطرفة بجامعة بورتسموث بالمملكة المتحدة: "إن مخزون الجسم من الأكسجين قد لا يتعدى لترين، وتتوقف قدرة الجسم على الاستفادة من هذا المخزون على معدل التمثيل الغذائي".

نشاط بدني

ويستخدم الشخص البالغ خُمس أو ربع لتر من الأكسجين في الدقيقة عندما يكون مسترخيا، وأربعة لترات في الدقيقة عندما يمارس نشاطا بدنيا.

وقد بذل طاقم السفينة محاولات يائسة لإعادة السفينة إلى موضعها دون الاستعانة بالآلات، حتى يتمكنوا من إنقاذ زميلهم المفقود، وأطلقوا غواصة تدار عن بُعد على أمل العثور على ليمونز. وعندها تابعوا على شاشاتهم الصور التي كانت تبثها كاميرات الغواصة لليمونز الذي بدا وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى توقف عن الحركة.

ويقول ليمونز: "كنت أحاول استنشاق آخر نفس متبق من مخزون الهواء في اسطوانة الطوارئ، وكان سحب الغاز إلى الجسم شاقا، وشعرت أنني في اللحظات الأخيرة قبل الخلود إلى النوم. وتملكني حينها الغضب بسبب الضرر الذي سأسببه للآخرين، وأردت الاعتذار لخطيبتي. وبعدها انتهى كل شيء".

وبعد مرور 30 دقيقة استعاد طاقم البحارة السيطرة على السفينة واستطاع تشغيل نظام التموضع الديناميكي مرة أخرى. وعندما وصل يواسا إلى ليمونز على قمة الهيكل المعدني، وجده هامدا لا يحرك ساكنا.

وانتشله يواسا ورفعه إلى السفينة، وعندما أزال أولكوك الخوذة عن رأسه، بدت زرقة وجهه واضحة وقد توقف تماما عن التنفس. وأجرى له أولكوك على الفور تنفسا اصطناعيا عن طريق الفم. والعجيب أن ليمونز عاد إليه وعيه.ويقول ليمونز: "كنت منهكا، ورأيت ومضات من الضوء، لكن كل ما أتذكره أن ديف كان في أحد أركان مقصورة الغوص وبدا متعبا، وبعدها أدركت خطورة الموقف".وبعد نحو سبع سنوات من الحادثة، لا يزال ليمونز لا يصدق أنه نجا من الموت رغم بقائه كل هذا الوقت من دون أكسجين. لكن من الواضح أن برودة البحر الشمالي لعبت دورا كبيرا في نجاته، إذ أن درجة حرارة المياه عند عمق 100 متر من سطح البحر تقل عن ثلاث درجات مئوية.ويقول تيبتون: "إن التبريد السريع للدماغ قد يساعد في تمديد فترة البقاء على قيد الحياة من دون أكسجين، وإذا انخفضت درجة الحرارة درجات، ينخفض معدل التمثيل10 الغذائي بمقدار النصف أو الثلث. وإذا وصلت درجة حرارة الدماغ إلى 20 درجة مئوية، ستتحمل البقاء من دون أكسجين لمدة ساعة".ولا يواجه الغواصون وحدهم مخاطر انقطاع إمدادات الهواء، بل إن رجال الإطفاء يعتمدون أيضا على أجهزة تنفس عند دخول المباني الممتلئة بالدخان، ويرتدي الطيارون أقنعة تنفس عند الارتفاعات العالية. ويتعرض متسلقو الجبال لانخفاض تركيز الأكسجين في المرتفعات الشاهقة. وعندما ينخفض تركيز الأكسجين في الهواء تتدهور الوظائف المعرفية وهذا يؤدي إلى ضعف القدرة على اتخاذ القرار والارتباك.وكثيرا ما يعاني المرضى بعد العلميات الجراحية من نقص الأكسجين. وقد يؤدي نقص الأكسجين في الدماغ إلى الإصابة بالسكتة الدماغية. ويقول تيبتون: "هناك أمراض عديدة تفضي إلى نقص الأكسجين في الدم، وهو ما يسبب أضرارا عديدة، منها فقدان الرؤية المحيطية".

لكن ليمونز ليس أول الناجين من الموت بعد البقاء لفترة طويلة تحت الماء، إذ أُنقذت فتاة عمرها عامين ونصف بعد أن مكثت تحت الماء لمدة 66دقيقة على الأقل.وتساعد تدريبات ما يعرف بـ "الغوص التشبعي" الجسم في التأقلم على الظروف القاسية، إذ أثبت باحثون من جامعة العلوم والتكنولوجيا النرويجية أن ممارسي ذلك النوع من الغوص يتكيفون مع البيئات القاسية التي يعملون فيها، من خلال تغيير النشاط الجيني لخلايا الدم.

وقد كشفت الدراسات التي أجريت على القبائل التي تمارس الغوص الحر من دون إمدادات هواء إضافية، مدى قدرة الجسم البشري على التأقلم من دون أكسجين. إذ يستطيع أفراد قبيلة الباجاو الغوص حتى عمق 70 مترا تحت سطح البحر وهم يحبسون أنفاسهم.

وراثة تطورية

وقد لاحظت ميليسا إيلاردو، عالمة وراثة تطورية بجامعة يوتا، أن حجم الطحال لدى سكان قبيلة الباجاو أكبر بمقدار في المئة منه لدى نظرائهم في 50 القبائل المجاورة.

وتقول إيلاردو إن الاستجابة الفطرية للغوص هي حبس الأنفاس وغمر الرأس تحت الماء، وهذا يؤدي إلى انكماش حجم الطحال، الذي يُخزن خلايا الدم الحمراء الغنية بالأكسجين. وعندما ينكمش الطحال يدفع خلايا الدم الحمراء في مجرى الدم ويزيد كمية الأكسجين في الدم.ولهذا يستطيع سكان الباجاو حبس أنفاسهم لفترة أطول قد تصل إلى 13دقيقة تحت الماء.وعاد ليمونز إلى الغوص بعد نحو ثلاثة أسابيع لاستئناف مهمته التي بدأ فيها بالفعل. وتزوج خطيبته موراغ. وينسب الفضل في نجاته إلى صديقيه اللذين رافقاه في المياه، وشجاعتهما البطولية.

وفي أعقاب الحادثة، استُحدثت الكثير من الإجراءات والقواعد في مجال الغطس، مثل ضرورة استخدام اسطوانات هواء للطوارئ تكفي لمدة 40 دقيقة بدلا من خمس دقائق، وزودت الخراطيم بمصابيح ليسهل رؤيتها في الظلام.ويقول ليمونز: "لم أعد أخشى الموت، بل يجب أن نهتم بالإرث الذي سنخلفه بعد مماتنا".

غوص: كريس ليمونز يمارس الغوص لنحو عام ونصف قبل أن تقع الحادثة